معالم الثقافة الإسلامية في مدينة دمشق

مقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي

رضوان الحجار
باحث في شؤون الحضارة الإسلامية

نتابع في الجزء الثاني من مقالة معالم الثقافة الإسلامية في مدينة دمشق المنشورة في العدد رقم ١٢٣ الحديث عما تطويه هذه المدينة من أعماق وأسرار لا يعرفها إلا من أحبَّ هذه المدينة العريقة في الحضارة والموغلة بالتاريخ والثقافة.

وسنتحدث في هذا المقال عن مقام سلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي الأندلسي والذي يطل على دمشق من حيِّ الصالحية على سفح جبل قاسيون.

لقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي من كبار العرفانيين ومن أئمة الصوفية الذين عرفتهم الحضارة الإسلامية، وقد اختلف فيه أهل الظاهر من الفقهاء بين مادح وقادح، أما الفلاسفة الماديون فمنهم من أبدى إعجابه به ولكن بعدما أساء فهمه وشوَّه عرفانه، فالعرفاء لهم مصطلحاتهم ورموزهم يراها غيرهم غموضاً وأسراراً، فهم يعبرون عن الحقائق بالإشارات وعن المشاهدات بالرمز والشعر، ولا يملك القدرة على فهم المقصود وفكِّ الرموز قساةُ القلوب الذين قال عنهم الله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر:٢٢].

فالعرفان أو التصوف يطوي أعماقاً معرفية، لذا تجد من لا يحسن الغوص لتلك الأعماق كيف تحترق أفكاره وتتمزق أنفاسه فيلجأ للتكفير ولتشبيه العرفان أو التصوف بالخيالات والضلالات الشيطانية حتى يجاري وعيه السطحي والضحل فيعيش في نطاق رؤيته الضيقة يرى قاربه الصغير أكبر السفن في العالم ويرى البحيرة الضحلة التي يبحر بها أكبر محيطات العالم.

ومنهم من يلجأ لتشبيه العرفان بأفكار الفلاسفة الإشراقيين أمثال أفلوطين حتى يجاري وعيه المادي المحسوس والذي يرى بعينيه وقلبُهُ أعمى لم يستنر بمعرفة الله ولم يشهد طلاقة قدرته وعظمة كماله فعاش كالطبيب الذي يكتب للناس الدواء ولا يجد لعلته طبيباً ولا لمرضه دواءً.

وحتى يتسنى لنا الحديث عن سلطان العارفين لابد من مقدمة للتعريف بمفهوم العرفان أو التصوف الإسلامي، ولابد لنا من التقارب مع الرمزية والتي هي لغة أهل العرفان والتصوف، بداية سنعيش دقائق مع رمزية المكان الذي اختاره الله سبحانه وتعالى للقاء كليم الله سيدنا موسى عليه السلام بسيدنا الخضر، فبعدما ترك سيدنا موسى قومه وأهله في رحلة أمره الله بها للالتقاء مع رجل من أهل الله من عامة الناس لم تكن تظهر عليه سمات فارقة تدل على علوِّه على بني جنسه، كانت المشيئة الإلهية أن يكون موضع اللقاء بينهما في ((مجمع البحرين)) ولهذا الاختيار رمزية فالحق تعالى وصف ذلك المكان بقوله تعالى:

{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} [الرحمن:١٩]. لقد كان مجمع

البحريـن هو البرزخ الذي يفصل بين بحرين يلتقيـان ولكن لا يمتزجان، ومن هنـا تأتي رمزية المكان فالعرفان أو التصوف هو العلم والسـلوك الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة، حتى لو ظهرت لغيرهم أضداداً أو مجالَيْن متعارضَيْن، فالشـريعة هي أمر الله ونهيه، والحقيقة هي مشـيئة الله وإرادته، فأمرُ الله ونهيُهُ تجلَّت ظاهرةً في آيات الأحكام والتشـريع، ومشـيئةُ الله وإرادتُهُ أشـارت إليها قصص وأمثال القرآن الكريم وتجلَّت في الآيات الكونية المذكورة فيه، فالشريعة أن تعبد الله تعالى وفق ما أمر به من غير ابتداع ولا اختلاق، والحقيقة أن تشهد مشيئة الله وإرادته في خلقه.

إن موسـى وهو كليم الله كان يعلم أن الشـريعة ليسـت أحكاماً ظاهرة كما يراهـا علماء الرسـوم لأنه كان قد سـبق له أن أُدين من قبـل طاغوت عصره فرعـون بتهمة القتل عندما وكز رجلاً مـن آل فرعون بالخطأ، مع أن فرعون هـو من كان قد أمر بقتله لمّا كان طفـلاً رضيعاً عن عمد وإصرار لولا العناية الإلهية التي أنقذت موسى من بطش فرعون وجنوده.

ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوصل رسالة لعبده موسى بأن الإنسان مهمـا أوتـي من العلم فقد طُويت عنه علوم لو نشـرت ما اسـتطاع البشـر أن يحيطوا بها مصداقاً لقوله تعالى في خواتيم سورة الكهف:

{قُـلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}. [الكهف: ١٠٩].

{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. [لقمان: ٢٧].

إنَّ الشـريعة والحقيقة عالمان أشـبه ما يكونا بالبحرين ولا يمكن بلوغهما في وعي أي إنسـان مالم تترسـخ لديه المعرفة الحقة بالله سـبحانه وتعالى التي تمنح العبد الأمان والسـلام الداخلي فيرى الكون بالرؤية التي تشـهد مشيئة الله وإرادتـه وليس بالعين التي كان يرى بها مـن منظور حظوظ النفس وأهوائها، كمـا قـال الله تعالى: {اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّـكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا* وَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} [الطور: ٤٨-٤٩]

تبدأ قصة الشيخ ابن العربي من الأندلس حيث وُلد هناك في شهر رمضان من عام ٥٦٠ للهجرة من أبٍ ينحدر من قبيلة طيء العربية وأمٍّ من أصل شامي من أحفاد أبو مسلم الخولاني[١] إمام الصالحين وقدوتهم ببلاد الشام في زمانه[٢]، فقد كان أجداده ممن هاجروا من المشرق إلى المغرب فراراً من الفتن التي اشتعلت نارها في المشرق العربي بسبب العصبيات الضيقة والتي أدت لإنتاج ثقافة الإقصاء في تركيبتنا الشرقية، وكانت الأندلس تعيش محنة التمزق والتفرق رغم المخاطر التي تحدق بها فيما عرف بدول ملوك الطوائف، وسنرى بعد ذلك كيف سيقوم ابن العربي الأندلسي بهجرة معاكسة لهجرة أجداده أي من المغرب إلى المشرق.

لقد تلقى الشيخ ابن العربي علومه الشرعية في مدارس أشبيلية الأندلسية، أما بدايته العرفانية فقد بدأت من حادثة غريبة وقعت له عندما كان شاباً، فقد أصيب بمرض عضال أشرف فيه على الهلاك، وعندها ظهرت له رؤيا ستكون مفترق الطريق في حياته التي سيعيشها، فقد رأى نفسه محاطاً بفرسان مدججين بأعتى الأسلحة ينقضون عليه ليقتلوه وإذا بفارس يقبل من ورائه يهوي بسيفه على المعتدين فيردهم عنه ويفزعون للهرب والفرار، وفي الرؤيا يسأل ابن العربي الأندلسي الشاب: من أنت أيها الفارس؟ فيرد عليه أنا سورة يس، يستفيق الفتى ليجد والده قد آلمه مرض ابنه الغامض وهو يقرأ عليه سورة يس لعل الله يشفيه بعد أن عجز طب العطارين عن مداواته.[٣]

---

(١) أبو مسلم الخولاني: اسمه عبد الله بن ثوب أصله من اليمن وسكن واستقر في الشام وقد كان من كبار التابعين فيها، كان له موقف مشهور في اليمن مع المتنبئ الأسود العنسي حيث عذبه بالنار لما أبى وأنكر عليه، وقد كان جريئاً بالحق فقد دخل على الخليفة معاوية وقال له السلام عليك أيها الأجير. له مسجد ومقام مشهور في بلدة داريا بريف دمشق.

(٢) الأستاذ محمود غراب، الشيخ الأكبر ترجمة حياته من كلامه، ص١٦ ، ونود الإشارة إلى أن مرجعاً آخر هو هكذا تكلم ابن العربي لنصر حامد أبو زيد، ذكر أن والدة الشيخ الأكبر من أصل أمازيغي، ولكن ذكرنا في المتن الأرجح.

(٣) نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن العربي، الهيئة المصرية للكتاب، منشورات ٢٠١٥،ص٣٦. وللأمانة العلمية فإن بعض المحققين في تراث الشيخ الأكبر كالمحقق الأستاذ محمود الغراب أشار إلى عدم ثبوت هذه الحادثة له، ونوه إلى أن بعض المستشرقين اتهموا الشيخ بأنه كان لديه أوهام، وهذه من جملة الأكاذيب والتخرصات التي نسبت له وذلك لأن كثيراً منهم من أتباع المذاهب المادية التي تنكر الغيبيات وتعتبرها خرافات وضلالات عقلية وحتى إن منهم من هو بالأساس ملحد ومنكر للوحي والنبوة، ومن كان هذا حاله لا يمكن ألبته أن ينصف الشيخ الأكبر لأنه لا يمكن له أن يفهم كلامه.

لماذا سورة يس؟؟ وأي قوة تمثلها حتى تمتلك هذا السر؟ سيجيب عن ذلك الإمام القشيري[٥] أحد أعلام مدرسة التفسير الإشاري[٤]، إذ يقول في تفسير معنى يس: (الياء تشير إلى يوم الميثاق، والسين تشير إلى سرِّه مع الأحباب[٦] إذاً فكلمة يس هي رمز لذلك السر بين الله تعالى وبين عبده الولي، أي هي تعبير عن المعنى التالي: يا ذاكر السرِّ بينك وبين الله تذكر العهد أو الميثاق بينك وبين الله.

إن هذا (العهد) و (ألست بربكم) هي إشارة للحقيقة التي بينتها الآية القرآنية : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ). [الأعراف- ١٧٢].

لقد كانت سورة يس هي بداية التعارف بين ابن العربي الأندلسي والعرفان والذي سيكون أحد أعلامه فيما بعد، حيث صار يميل للخلوة والعزلة ولا يأنس لجلسات السمر التي كان يلهو بها أقرانه من الشباب.

وفي خلواته كان مستغرقاً في العبادة وتلاوة القرآن والذكر، وكان يبدأ

(٤) الإمام القشيري (٣٧٦- ٤٦٥ هـ): هو عبد الكريم بن هوازن أبو القاسم القشيري إمام الصوفية، وصاحب الرسالة القشيرية في علم التصوف، ومن كبار العلماء في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر.

(٥) التفسير الإشاري: هي أحد مدارس التفسير جمعت تفاسير أئمة الصوفية للآيات القرآنية.

(٦) الإمام القشيري، لطائف الإشارات والمشهور باسم تفسير القشيري، الهيئة المصرية للكتاب، ط٣، ج٣، ص٢١١

جلسات الذكر بقوله جهراً: فاعلم أنه لا إله إلا الله ثم يرددها حتى يلفظها سراً من أعماق قلبه ومع شهقات أنفاسه، ففي الخلوة بالذكر يكون التخلي ثم التحلي ثم التجلي، فالمعرفة بالكشف والشهود لا تكون إلا بتطهير القلب من رق الأغيار وسمو النفس بمحو السوى وإشراق القلب بالشهود وليس بالدعاوي العريضة والكاذبة، وليس بطريق غير طريق الشريعة السمحاء، وقد مكث ابن العربي على حاله مستغرقاً في شهوده حتى آتاه الإلهام بالتهيؤ للسفر.

عبر ابن العربي مضيق جبل طارق في رحلة تعاكس مسار رحلة أجداده وكأنها دورة تاريخية تشبه دورة الماء في الطبيعة بين أمواج البحر وغيوم السماء، وهنا تأتي الوقفة الثانية في مسيرة حياة ابن العربي الأندلسي فقد التقى بعد عبوره المضيق بعدد من الصالحين ومن أشهرهم أحد كبار الأولياء في زمانه ألا وهو أبو مدين التلمساني. (٧)

وعندما حدث اللقاء جرى تبادل الأقداح بينهما حسب اصطلاحات أهل العرفان الرمزية، فالأقداح هنا تعني أن الساقي منح الشارب المذاق، أي أنه أذاقه خمرة الشهود، والخمرة هنا كلمة رمزية تعني ذلك الحال الذي يتعرض له المريد عند التجلي وشهود عظمة كمال الحق سبحانه وتعالى وطلاقة قدرته، إنها الخمرة التي تجعل المريد يفنى بشهوده عن وجوده، فيرى الفعالية لله وحده في العوالم كلها ولا يرى للخلق فيها أثراً ولا سبباً، وكما يقول أهل التصوف من ذاق عرف، وقد كان ابن العربي الأندلسي قد تمثل المعنى الذي تنطق به هذه الأبيات:

كنت أشرب صرت ساقي على المدامة وكّلوني

لا عجب أن يكون أبو مدين الغوث الساقي لابن العربي الأندلسي، كيف لا وأهل التصوف ما زالوا يرددون قصيدته المشهورة في مجالس الذكر والح ضرات.

(٧) العارف بالله أبو مدين الغوث (٥٠٩-٥٩٤): شعيب بن الحسين الأنصاري والمعروف باسم سيدي أبو مدين التلمساني، شاعر وصوفي كبير، نشأ في أشبيليه وتعلم فيها و بفاس، سافر للمشرق حاجاً والتقى بعبد القادر الجيلاني وأخذ عنه الطريق، دفن رحمه الله في تلمسان.

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتـــاداً بلوغ كمال
فالكـل ســـوى الله إن حققته عدم على التفصيـل والإجمال
واعلم بأنـك والعـــوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال
فالعارفون فنـوا ولما يشهدوا ســوى الله المتكبر المتعـــال

كان ابن العربي حريصاً أن يبدو في عيون الناس بمظهر النقص فكان يؤثـر الخمول علـى الظهور، وكان حريصاً على تهذيب نفسـه بـذل العبودية ليشهد عظمة الربوبية، واستكمالاً لرحلته نحو المشرق حدثت له رؤية لمّا كان فـي تونس، فقد التقى ابن العربي بسـيدنا الخضر عليه السـلام كما يروي ذلك عن نفسـه وقد تطور ذلك اللقاء إلى اسـتلام الخرقة إشارة لوصول ابن العربي لمرحلة النضج العرفاني. (٨)

واسـتكمالاً لرحلتـه نحو المشـرق جرت لابـن العربي الأندلسـي تجربةٌ ثريـةٌ في مسـيرته العرفانية، فقد توجه للحجاز قاصـداً الحج لبيت الله الحرام، وطريق الحج له دلالات ورموز عميقة، ففي طريق الحج جرى الفتح لعمر ابن الفارض، وفي طريق الحج كانت منية أبي الحسـن الشاذلي، وفي طريق الحج كانت الفتوحات المكية ذلك السـفر المشـهور لابن العربي الأندلسي الذي سجل فيه تجربته الروحية وعلومه العرفانية.

إن تذوق المعاني العرفانية لطريق الحج جعلت أهل الله ينسون مشقة السفر ومكابدة الترحال، فطريق الحج كان محفوفاً بالمخاطر ففيه قطاع الطريق الذين ينهبـون ويقتلون، والسـيول الجارفة في الشـتاء، والقيظ والجفـاف المهلك في الصيف، ومع ذلك كان طريقاً للعاشقين لأهل الله.

يحدثنا الشـيخ ابن العربي عن أسـرار الحج وكيـف أن الحاج يمر بدائرة الميقات ثم دائرة الحرم ثم دائرة المسـجد الحرام ليصل للمركز ألا وهي الكعبة المشـرفة، فـي مقاربة مع مراحل ترقي النفس البشـرية للوصـول إلى معرفة الله سـبحانه وتعالى من الإسـلام إلى الإيمان إلى الإحسـان، أمـا الطواف فهو

(٨) نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن العربي، منشورات هيئة المصرية للكتاب، ص٥٠ .

سبعة أشواط حول الكعبة كحركة الأفلاك في الكون، والكعبة لها أربعة أركان كالأوتاد[٩]، أما الركن الشرقي الذي يستقبل وصول ضوء الشمس عند الشروق فهو الركن الذي فيه الحجر الأسود.

إن شعائر الحج مليئة بالإشارات الكونية التي يعرفها أهل الله في منظومة توحد الله سبحانه وتعالى من الذرة للمجرة، امتثالاً لقوله تعالى:

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء- ٤٤].

ومع أن كتاب الفتوحات ابتدأ كتابته ابن العربي الأندلسي في الحج إلا أنه لم يكتمل إلا في دمشق بعد وصوله إليها واستقراره فيها، واستمر حتى خاتمة عمره وهذه إشارة رمزية من الشيخ الأكبر.

فمدينة دمشق في زمن ابن العربي كانت تعيش زماناً قلقاً فهي محاصرة بين غارات المغول من المشرق وتهديدات حملات الفرنجة من المغرب، وكان ابن العربي بأسلوبه العرفاني يفسر تلك الأحداث بالعناية الإلهية التي تعيد تشكيل الأمة من جديد كما أبان ذلك عند حديثه عن مفهوم ختم الولاية [١٠] أحد المقولات العرفانية عند ابن العربي، فالعارفون يشهدون المنن بالمحن والعطايا في البلايا، فالشدائد والمحن رغم عنفوانها تمثل الشر الذي يبطن خيراً كما يقول أهل العرفان، وكما أشارت إليه قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، فهي التي تمحص المؤمن من المنافق وتطهر المؤمن من أوزاره في دورة تاريخية تشبه دورة تعاقب الليل

(٩) سيدنا ابن العربي الأندلسي ، روح القدس في محاسبة النفس،شرح وتحقيق الأستاذ محمود غراب، ط٢ بدمشق لعام١٩٨٥، ص١٠٧ .

(١٠) يقصد ابن العربي بمفهوم ختم الولاية أنه يوجد من أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين خواص وصفوة الأتقياء لا يخلو منه زمان ومكان يكونون حجة لله على خلقه، ويظهرون الشفقة والرحمة لسائر المسلمين، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، يثبت الله بهم عزيمة المسلمين في الشدائد فهم مثل الجبال للأرض، وهم على قلوب الأنبياء ومازالوا موجودين كلما مات منهم أحد أبدل الله غيرهم ممن يشاء وكيف يشاء، والله أعلم بسره في خلقه، ويبقى الأمر على ذلك في أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى آخر الزمان حيث يكون ختم الولاية المحمدية بظهور سيدنا المهدي من نسل عترة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وختم الولاية العامة بنزول سيدنا المسيح،ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق والله أعلم بمراده، وصدق رسول الله القائل: أمتي كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره.

والنهار في الطبيعة، فالرخاء هو النهار، والبلاء هو الليل، وحال المؤمن في الرخاء الشكر وحاله في البلاء الصبر، أما غير المؤمن فحاله كما وصفه تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً} [المعارج- ١٩-٢١].

لقد كانت للشيخ ابن العربي الأندلسي جولات في الأمصار بعد أن صار مرشداً للحقيقة وإماماً في التصوف والعرفان فقد شهد له أهل الحقائق بضلوعه في العرفان حتى أطلقوا عليه لقب الشيخ الأكبر وسلطان العارفين أو الكبريت الأحمر كما أسماه عبد الوهاب الشعراني(١١) كناية عن تفرده في العرفان والعلوم اللدنية، وقد كان يلتقي بالصالحين والمريدين والدراويش من الزهاد والعباد في الزوايا والربط والتكايا في الأمصار والأسفار فيتحدث معهم في سير الأنبياء وقصص التائبين وكرامات الأولياء وشمائل المصطفى وآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتبادل معهم في مجالس الذكر والحضرات الأقداح بالمعنى الرمزي كما أشرنا سابقاً، فقد كان ساقياً من الطراز الأول، ففي بغداد كان له لقاء مع شهاب الدين السهروردي(١٢)، وفي قونية بتركية كان له لقاء مع أحد مريديه والذي سيكون أحد تلامذته المشهورين وهو صدر الدين القونوي(١٣)، وفي حلب كان له لقاء مع أبو الفتوح السهروردي(١٤)، كما كانت لديه لقاءات

(١١) العارف عبد الوهاب الشعراني (٨٩٨-٩٧٣)هجري: فقيه شافعي وإمام صوفي، ولد وتوفي في مصر رحمه الله. من أشهر أساتذته الإمام زكريا الأنصاري والإمام السيوطي والإمام القسطلاني، من أشهر أعماله كتاب (الميزان) في الفقه المقارن، و(الطبقات) في تراجم الصوفية، وكتاب (الكبريت الأحمر في بيان عقائد الشيخ الأكبر) يدافع فيه عن الشيخ محي الدين ابن العربي الأندلسي.

(١٢) شهاب الدين السهروردي (٥٣٩-٦٣٢): هو شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله القرشي، صاحب الطريقة السهروردية، أصله من سهرورد من مدن غرب إيران، فصحب عمه أبا النجيب ولازمه وأخذ عنه الفقه والوعظ والتصوف، والتقى عبد القادر الجيلاني، من أشهر أعماله (عوارف المعارف) ، ومن أشهر تلامذته العز بن عبد السلام والشاعر الإيراني سعدي الشيرازي، توفي رحمه الله في بغداد.

(١٣) صدر الدين القونوي (٦٠٦-٦٧٢): ولد بتركية قرب ملاطية وتوفي في قونية، من علماء الصوفية يعتبر من أشهر مريدي ابن العربي الأندلسي.

(١٤) أبو الفتوح السهروردي (ت.٥٨٦): يلقب بالسهروردي المقتول فيلسوف وفقيه شافعي صاحب كتاب (حكمة الإشراق) وتميز منهجه بالجمع بين العرفان والفلسفة الإشراقية ولعل ذلك جلب عليه نقمة بعض الفقهاء المتعصبين فاتهموه بعقيدته وأنه من الباطنية حتى قتل رحمه الله تعالى ظلماً، من أشهر تلامذته قطب الدين الشيرازي شارح حكمة الإشراق.

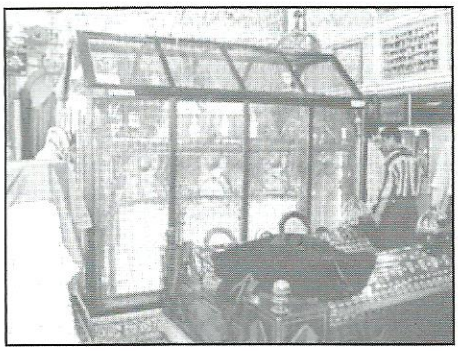

مع الأمراء ووزرائهم مثل أمير حلب السلطان غازي ابن صلاح الدين الأيوبي وغيرهم من الأمراء الأيوبيين الذين كانوا يوقرونه، وكذلك مع الأمراء التركمان من السلاجقة وغيرهم، وكان ممن زار الشيخ الأكبر في دمشق مولانا جلال الدين الرومي[١٥] صاحب المثنوي، وهو أشهر ديوان للشعر الصوفي وصل للشهرة العالمية.

ونعود كما أشرنا في بداية المقال إلى رمزية المكان عند العارفين، فقد كان لمقام الشيخ محي الدين ابن العربي في حي الصالحية بدمشق رمزية عميقة، سنحاول سبر رمزيتها من خلال العودة لقصة تأسيس ذلك الحي في عهد السلطان نور الدين زنكي.

فكما يروي لنا المؤرخ الدمشقي ابن طولون الصالحي الحنفي في كتابه النفيس (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) في سر تسمية هذا الحي باسم الصالحية: أن أصل التسمية تعود لعائلة الشيخ أبو عمر، وهو مؤسس عائلة المقادسة[١٦] والذي هاجر من بلاده لاستيلاء الفرنجة على الأرض المقدسية

(١٥) جلال الدين الرومي (٦٠٤-٦٧٢هجري): فقيه حنفي ومتصوف كبير، ولد في بلخ بخراسان، وسافر به والده لبغداد حيث تلقى تعليمه الشرعي في المدرسة المستنصرية، ثم استقر في قونية عاصمة دولة السلاجقة الأتراك، من أشهر أعماله ديوانه الصوفي (المثنوي)، وقد كتبه باللغة الفارسية، وتعتبر قصيدته (أنين الناي) من أشهر قصائده الصوفية، يقال في قصة تحوله إلى العرفان أنها تعود للقائه بعارف لله كان بائع حلوى يدعى شمس الدين التبريزي دخل على مجلس مولانا جلال الدين الرومي وجرى بينهما حوار كان نقطة تحول في حياته، توفي رحمه الله في قونية.

(١٦) عائلة المقادسة: هي من أشهر العائلات الدمشقية التي أخرجت علماء، وهي تضم الفقيه ابن قدامة المقدسي، ت.٦٢٠ هجري صاحب الموسوعة الفقهية (المغني) و (مختصر منهاج القاصدين) في التصوف، والمحدث عبد الغني المقدسي، ت.٦٠٠ هجري، صاحب الموسوعة في تراجم رجال الحديث (الكمال في أسماء الرجال) وقد بلغت ما يربو عن سبعين مجلداً والتي اختصرها الحافظ المزي في كتابه (تهذيب الكمال) ثم اختصرها ابن حجر العسقلاني في كتابه (تهذيب التهذيب)، والمؤرخ أبو شامة المقدسي، ت.٦٦٥ صاحب كتاب (الروضتين في تاريخ الدولتين).في تاريخ الدولة النورية والصلاحية، والمؤرخ والمحدث ضياء الدين المقدسي، ت.٦٤٣ هجري، مؤسس المدرسة الضيائية شرقي مسجد الحنابلة في الصالحية وصاحب كتاب (المختارة) في الحديث وكتاب (فضائل الشام) في أربعة أجزاء.

ثم وصوله لدمشق، فنزل في مسجد أبي صالح[١٧] بباب شرقي قرابة السنتين ثم انتقل إلى الجبل عند موضع يسمى دير الحنابلة فقال الناس: (الصالحية الصالحية، نسبونا إلى مسجد أبي صالح). [١٨] يقول ذلك ابن طولون على لسان الشيخ أبو عمر نفسه، إنها حقا لدلالة تاريخية رمزية، فأصل التسمية تعود لشخصية لها رمزية عرفانية فلا عجب إذاً أن يكون في هذا الحي مرقد ومقام سيدنا ابن عربي الأندلسي رحمه الله تعالى الذي توفي في سنة ٦٣٨ للهجرة، وقد أقيم بجوار المقام مسجد بأمر من السلطان العثماني سليم الأول عندما دخل دمشق في عام ٩٢٣ للهجرة، فقد كان له فيه اعتقاد، وبجوار المقام توجد التكية السليمية التي مازالت تقدم خدماتها لفقراء الحي رغم انصرام كل هذا الزمان الغابر على تأسيسها ببركة الشيخ ابن العربي، وكذلك يوجد البيمارستان القيمري والناعورة بتصميمها الهندسي العجيب وهما من الأوابد التاريخية المجاورة للمقام.

إن كلام الشيخ ابن العربي كما هو منشور في كتبه الثابتة عنه مليئة بلطائف التفسير القرآني، فعلى سبيل المثال انظر كيف يفسر لنا سر اختصاص البسملة في بداية كل سورة بأنها بسط الله تعالى لصفة الرحمة، فهي بشرى عظيمة لزوال كل صفة توجب الشقاء على عصاة الموحدين، أما سر عدم البدء بالبسملة في سورة التوبة لأن التوبة هي الرجعة الإلهية على العباد بالرحمة والعطف، والتوبة لا تكون إلا بصفة الرحمة[١٩]، وهو يختلف عن التفسير الذي

---

(١٧) مسجد ومقام العارف بالله الشيخ أبو صالح أو مقام الشيخ رسلان: ولد الشيخ أرسلان في قلعة جعبر على الفرات، وكان والده من الأجناد الذين قدموا لدمشق، وقد عمل الشيخ رسلان نجاراً ثم أقام رباطاً له خارج السور في الموضع الذي يقال أن خالد بن الوليد نصب به خيمته وأقام به أول الصلوات الجامعة عند فتحه لدمشق، وقد أقام السلطان نور الدين بعد ذلك مسجداً عند هذا الرباط، وقد كان الشيخ رسلان من كبار الصالحين رغم مظهره البسيط، ولأهل دمشق اعتقاد به إذ مازالوا ينشدون في العراضة الشامية (شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام) توفي رحمه الله في ٥٤١ للهجرة. وهم يقصدون أنه ببركة الشيخ رسلان وأمثاله من الأولياء فإن الله يحفظهم.

(١٨) ابن طولون الحنفي الصالحي، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق، تحقيق محمد الدهمان، ص٦٥ .

(١٩) عبد الوهاب الشعراني، الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١ لعام ١٩٩٨، ص٢٢ .

يرى أن سورة التوبة تحدثت عن أحوال المنافقين والكافرين وهذا لا يتناسب مع صفة الرحمة في البسملة، فالعارفون يرون أن سر إيجاد الحق للخلق كان بتجلي صفة الرحمة، وصفة الرحمة يتأتى منها المحبة والجمال وكل النعم الجلية والخفية، بهذا المبدأ العرفاني البسيط يمكننا أن نفهم مقولة وحدة الوجود العرفانية لابن عربي، فالفلاسفة الماديون أخطأوا في فهم معناها، فقد ظنوا أنه الوجود الذي يكون فيه الخلق عين الحق وهذا محض باطل يتناقض مع عقيدة التوحيد، فالحق سبحانه وتعالى مباين ومغاير ومنزه عن كل الخلق في ذاته وصفاته وأفعاله، ويكفي للرد على ذلك كلام الشيخ ابن العربي نفسه حيث يقول: (من قال بالحلول فعقله معلول، ومن قال بالاتحاد فقد قال بالإلحاد)[٢٠]. إذ يستحيل عقلاً وشرعاً حلول أو اتحاد أو اتصال القِدَم بالعدم.

ولكي نفهم مبدأ وحدة الوجود العرفاني وليس المادي عند ابن العربي سنورد ما قاله العارف بالله عبد الغني النابلسي[٢١] في رسالة له سماها (إيضاح المقصود من وحدة الوجود) يشرح لنا هذا المبدأ، إذ يقول (قدَّس الله سرَّه) بأن المقصود من معنى وحدة الوجود أن جميع العوالم كلها على اختلاف أجناسها وُجدت من العدم بإيجاد من الله تعالى لا بذاتها، محفوظ عليها الوجود في كل لمحة بإمداد من الله تعالى، فالعوالم كلها من جهة نفسها معدومة بعدمها الأصلي، ولكن هي موجودة بمشيئة الله وإرادته، وعليه فالنظر للوجود مِنْ حيث مَنْ هو موجود بذاته لذاته في الأزل وهو الحق سبحانه وتعالى والمفقود لعدمه الأصلي وهو الخلق يفسر لنا هذه المقولة العرفانية بكل بساطة[٢٢]. فالكون مثبَّتٌ بإثباته مَمْحُوٌّ بأحدية ذاته كما تقول الحكمة العطائية، وهذا معنى قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}. [القصص- ٨٨].

(٢٠) نقلا عن كتاب: اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر، للإمام عبد الوهاب الشعراني، ص٨٠، ويعتبر الإمام الشعراني أحد العلماء العارفين الذين قدموا عرفان ابن العربي ووضح ما أشكل فيه من غموض والتباس.

(٢١) العارف عبد الغني النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣)هجري: فقيه حنفي وشاعر صوفي، ولد وتوفي في دمشق رحمه الله وله مسجد ومقام مشهور في حي الصالحية.

(٢٢) عبد الغني النابلسي، رسالة إيضاح المقصود من وحدة الوجود، ص٢.

وهذه المقولة العرفانية ردٌّ على المقولة الفلسفية التي تقول بالقِدَم النوعي للمادة.[٢٣] فالكون بعوالمه السفلية والعلوية على الحقيقة ليس إلا تجلي لصفات وأفعال الله سبحانه وتعالى ومظهر لمعاني أسمائه الحسنى كما يفهمه العارفون.

إنَّ مدينة دمشق حوت كثيراً من رموز الفكر الإسلامي بجنَاحيه، البرهان أو علم التوحيد وأساسه المعرفة بالاستدلال والمنطق الذي يجمع بين النقل والعقل ويمثله الإمام الغزالي، والعرفان أو علم التصوف وأساسه المعرفة بالكشف والشهود عن طريق التحقق بالشريعة ظاهراً وباطناً ويمثله الشيخ الأكبر ابن العربي الأندلسي، فكل حقيقة تخالف الشريعة هي محض باطل، فالله ضمن لنا العصمة بالوحي والشريعة ولم يضمنه في غيرها، وبهذه النقطة يختلف العرفان عن الفلسفة الإشراقية التي تقبل المعرفة بالكشف والإلهام وتؤمن بحقيقة الروح ولكن من غير طريق التقيد بأحكام الشريعة والتحقق بها ظاهراً وباطناً، فكما كان يقول الجنيد شيخ الصوفية في زمانه (ت.٢٩٧) يقول:(علمنا مقيد بالكتاب والسنة من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يؤخذ منه هذا العلم) ، وقد كان أبو حسن الشاذلي شيخ وإمام الصوفية في زمانه (ت.٦٥٦) يقول: (لا تعبأ بعلم الفقير ما لم تتحقق فيه أربعة آداب، مجانبة الظَّلَمة، ومواساة أهل الفاقة، وإيثار أهل الآخرة، وملازمة الخمس في جماعة). [٢٤] وقد كان هذا منهاج سيدنا ابن العربي.[٢٥]

إن من خصائص العرفان والتصوف الإسلامي تمكن محبة الله في قلب العارف فيفيض بالشفقة والنصيحة للمسلمين عامة وبالرحمة والرفق لسائر

(٢٣) تنسب هذه المقولة للمدرسة المشائية، وهي مدرسة فلسفية بدأت مع الفيلسوف أرسطو، أساسها المنطق والاستدلال بالعقل وحده ورفض المعرفة عن طريق الكشف والشهود كما هي عند العرفانيين، وكان ابن رشد والكندي أبرز من يمثلها في الحضارة الإسلامية، وقد رد عليهم الإمام الغزالي في كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة)، حيث أورد فيه ثلاث مقولات لهم فيها مخالفة للإسلام وهي أن الله يعلم بالكليات دون الجزئيات، والقدم النوعي للمادة، وأن المعاد والبعث بالأرواح لا بالأجساد. (يجدر الإشارة هنا – حتى ننصف الجميع – إلى أن ابن رشد ردَّ على أبي حامد الغزالي بكتاب أسماه: « تهافت التهافت»). رئيس التحرير.

(٢٤) نقلا عن ابن عطاء السكندري، عنوان الطريق في آداب الطريق، دار البيروتي، دمشق ط١.

(٢٥) ومما يؤكد هذه الحقيقة الكلام الخاطئ الذي ينسب للشيخ الأكبر مثل هذا البيت المشهور عنه:
أدين بدين الحب أنى توجهت...ركائبه فالحب ديني وإيماني.
والصحيح أنه قال: فالدين ديني وإيماني كما نص عليه الشيخ الأكبر في كتابين له وهما: (ترجمان الأشواق) و (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار)، وقد ذكر هذه الملاحظة المحقق في تراث الشيخ الأكبر الأستاذ محمود غراب في كتابه النفيس من نوعه: الشيخ الأكبر ترجمة حياته من كلامه، ص٩.

الخلق حتى العصاة منهم، تأسيا بسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي قال الله عنه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء-١٠٧]. فالعارف يرى نفسه طبيبا لآفات النفوس وليس قاضياً ودليلاً للحائرين والتائبين، يحبب الخلق بالحق ولا يقنطهم من رحمة الله ولا يجعلهم يأمنون مكر الله، فقلب المؤمن كجناحي طائر يسافر به قاطعاً الحجب ليصل لمعرفة الله، جناحه الأول الخوف من الله وجناحه الثاني الطمع برحمة الله، أما رأسه فهي محبة الله عزَّوجلَّ.

وقد ظهر هذا المعنى جلياً عندما قام أحد العارفين الذين أحبوا الشيخ ابن العربي واستلهموا من معينه واستقوا من علومه وهو أشهر شراح عرفانه ألا وهو الأمير عبد القادر الجزائري[٢٦] بموقف تاريخي لا ينسى يكتب بمداد الفخر والعزة وذلك عندما اشتعلت نار الفتنة في البلاد الشامية في سنة ١٨٦٠ فسعى لإخمادها في دمشق وسعى للمصالحة والتقريب وحقن الدماء والحفاظ على تماسك الوحدة الوطنية، وحذر من شر الفتن وما تجلبه من إحن ومحن، وتصدى للرعاع والجهلاء الذين يتاجرون بالطائفية، ولا غرو أن تكون هذه أخلاق العارفين ودأبهم في كل زمان ومكان.

ولا ننسى في معرض حديثنا عن الشيخ الأكبر ابن العربي أن نتذكر المفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودي[٢٧]، فقد كان عرفان ابن العربي البوابة التي

(٢٦) الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨-١٨٨٣) ميلادي: ولد في الجزائر وكان والده أحد شيوخ الطريقة القادرية في الجزائر، قاد ثورة ضد الاحتلال الفرنسي في بلاده قرابة ثلاثين عاماً، ثم وقع معاهدة مع الفرنسيين بعد تعرضه للحصار والخيانة واختار دمشق منفى اختياري له، وقد أوصى أن يدفن بجوار سيدنا ابن العربي لحبه واعتقاده به، وقد نقل جثمانه للجزائر بعد الاستقلال.

(٢٧) روجيه جارودي (١٩١٣-٢٠١٢) ميلادي: ولد في فرنسا، لأم كاثوليكية وأب ملحد. اعتنق البروتستانتية، ثم انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، عين أستاذاً للفلسفة في عدد من جامعات فرنسا، وفي ٢ يوليو ١٩٨٢ أشهر جارودي إسلامه في المركز الإسلامي في جنيف، وقد هاجمه بعض الغلاة واتهموه بالكفر استناداً لبعض المقولات الصوفية، فأقام في مدينة قرطبة مركزاً للتراث الأندلسي ولتجربة التعايش النادرة بين أتباع الديانات السماوية في الأندلس زمن العهد الإسلامي، وللمناسبة فمحاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس كانت تلاحق المسلمين واليهود معاً، ولولا سماحة الإسلام مع أتباع الأديان لانقرضت الديانة اليهودية بأسرها في القرون الوسطى، وفي ١٩٩٨ أدانت محكمة فرنسية جارودي بتهمة معاداة السامية لتشكيكه في أعداد ضحايا الهولوكست ومهاجمته للصهيونية ولمخططاتها العدوانية في كتابه:(الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل)، وصدر بحقه حكم بالسجن لمدة سنة بتهمة معاداة السامية، ويا له من تناقض كيف تسمح الحرية في فرنسا بالرسوم المسيئة ونشر رواية الآيات الشيطانية لسلمان رشدي بما فيها من تحريض وافتراء ومعاداة للأديان بينما يضيق صدرها بكتاب جارودي عن الأساطير المؤسسة لإسرائيل، إنها حقاً مفارقه تدل على زيف مفهوم الحرية وازدواج المعايير.

جذبت هذا المفكر للإسلام بعد رحلة معرفيه مثيره منذ نشأته في أحضان الكاثوليكية ثم انتقاله للماركسية ثم انتقاله للوجودية. حقاً إن محبة الله ورسوله إذا تمكنت من قلب العبد صارت جباله وطباع نفسه دكاً من هيبة وعظمة المتجلي، وكأنها شهادة ميلاد جديدة له.

ومن آثار الشيخ الأكبر من المعاصرين العارف بالله الشيخ أحمد حارون وتلميذه فريد زمانه في تحقيق تراث الشيخ الأكبر أستاذنا محمود الغراب.

إن قلب العارف بالله الذي شهد كمال وعظمة الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرته حتى صارت الدنيا بزينتها وزخرفها ذهباً مغشوشاً يستوي في قلبه تبرها وترابها، ومنحه الله المواهب اللدنية حتى ذاق حلاوة اليقين فظل يعيش المعنى في قلبه، فتجري الحكمة من قلبه على لسانه، ولنقرأ هذه المعاني العرفانية لشاعر من آثار الشيخ الأكبر ألا وهو مولانا سعدي الشيرازي[٢٨] حين يقول ما ترجمته:

باسمك يا باريَ روحٍ في البدن ... بَرءاً وفي اللسان مبدعَ اللسنْ
فباسط الأرض ورافع السما ... لم يحبس الأرزاقَ عمن أجرما
قريبة من العفاة رحمتهْ ... وكل مضطر تجاب دعوتُه
مخترع ومبدع منذ القِدَم ... مصور الجنين داخل الرَّحِم
مدير أفلاك السما إلى أمد ... وباسط الأرض على ماء جمد
قد حارت العقول في صفاتهِ ... اجلْ ولم تبصر جمالَ ذاته
أحاط علمه بكل العالم ... فهل به يحيط وهم الواهم
لا ترجُ يا سعدي الوصول للصفا ... إن رمت نهجاً غير نهج المصطفى

(٢٨) سعدي الشيرازي (٦٠٦-٦٩٤)هجري: شاعر صوفي ولد في شيراز بإيران، رحل إلى بغداد ودرس في المدرسة النظامية، وأخذ عن عدد من علماء بغداد منهم عمر السهروردي أحد تلاميذ ابن العربي الأندلسي، ولقد أدرك سعدي الشيرازي اجتياح المغول لبغداد وعاين ما تركوه من خراب ودمار، وعلى أثر ذلك آثر الشيرازي السياحة فذهب إلى دمشق والقدس وتعرض للأسر في حلب، وبعد انفكاكه رجع إلى موطنه شيراز وتوفي هناك، ومن أشهر أعماله ديوانه (بوستان) أي البستان، و(كلستان) أي أرض الورود وقد ترجمت للعربية منها ترجمة الشاعر السوري الملقب بالفراتي، وقد كان الشيرازي محباً للعرب فديوانه غني بالأسماء العربية كما أنه رثى بغداد لمصابها في اجتياح المغول لها.

نفعنا الله ببركتهم وألحقنا بالصالحين من أمة سيد المرسلين وآله الأطهار والحمد لله رب العالمين.

وختاماً سنودِّع مقام سلطان العارفين ونحن نتأمل مشهد مجالس الذكر التي مازالت تقام في رحاب حرم مسجده قدس الله سره لليوم، وهي تبدأ بالصلاة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ثم ترديد نداء التوحيد لا إله إلا الله، ذلك النداء الخالد من الأزل إلى الأبد الذي يجلو القلوب وينقي النفوس ويمحو عنها آثار السوى، ثم اسمع منشد الحضرة يصيح مردداً تلك الكلمات التي تعلن بدأ القيام للحضرة:

حقق ترى في الوجود لا رب إلا الله
وإن ترى في الشهود محلى تجلي الله
فإذا تجلى جماله وانجلى معناه
فانهض في مجالس الذكر وقل الله..الله...الله...الله...الله....الله